إعادة كتابة التاريخ الإسلامي الدواعي والمبررات

دكتورة: هاجر أبو القاسم محمد الهادي – أستاذ مشارك جامعة أم درمان الأهلية/ قسم التاريخ والحضارة

مستخلص:

جاءت فكرة إعادة كتابة التأريخ منذ زمن بعيد, وذلك لأن مادة التأريخ العلمية تحتاج إلى التجديد باستمرار بمقدار ما يستجد من معلومات, فالشعوب في مراحل يقظتها الفكرية تزداد اهتماماً بتاريخها ومستقبلها وبالتالي تعيد قراءة ما كتبت سواء في تاريخ الأفراد أو الأمم أو الشعوب, وإعادة القراءة تعني إعادة الكتابة فتاريخ الحضارات ملك للمعرفة الإنسانية ليس فيه ثوابت فكلما تطورت وسائل المعرفة استجدت معلومات جديدة وجب استصحابها في كتابة هذا التأريخ.

وتكمن أهمية الورقة في إبراز معوقات إعادة كتابة التأريخ الإسلامي وهي عدم وضوح الرؤية وغياب المنهج, وضعف القدرة على التخطيط, بالإضافة إلى فقدان الروح الجماعية التي تتكامل فيه الطاقات لتحقيق الهدف, وثمة عوامل أخرى هي غياب التوحد في الرؤية وغياب الموضوعية, ووجود الحواجز الجغرافية والسياسية بين مؤرخي العالم الإسلامي وعدم تكامل الاختصاصات بالإضافة إلى قلة الإمكانيات المادية والفنية للمشاريع الفكرية الكبيرة. وهناك شروط أساسية لإعادة كتابة التأريخ الإسلامي أهمها:

1. ضرورة التنسيق ما بين التفسير وتحليل التاريخ الإسلامي.
2. أعمال النقد التاريخي للنصوص وإعادة عرضها بالأسلوب العلمي الدقيق.
3. التوازن ما بين دراسة الجوانب السياسية والعسكرية وما بين المعطيات الحضارية.
4. إخضاع الرؤية التاريخية إلى التحليل والتمحيص قبل اعتمادها.
5. الاعتماد في بناء البحث التاريخي على الواقعة نفسها.
6. اتحاد علمي تجاه مناهج المستشرقين وآراءها في تفسير التاريخ الإسلامي.
7. تكوين مؤرخين جدد أو تحرك باحثين معتزين بدينهم وثقافتهم وحضارتهم لغرس مشاعر الاعتداد الثقافي والحضاري حتى يستطيع اتَّباع منهج متوازن ويعتمد على المصادر العليا للمعرفة والتوجيه.

وخلصـت الورقة إلى ضـرورة إعداد باحثين ومؤرخين يقع عليهم عبء عرض وتحليل الدراسات التاريخية مستفيدة من أدوات العصر وعلومه المتجددة للوصول إلى تاريخ إسلامي جديد وصادق.

Abstract

The idea of rewriting history has been a long time ago, because the material of scientific history needs to be constantly renewed in the amount of new information, as the people in the stages of their intellectual awakening are increasingly interested in their history and their future and thus reread what they wrote both in the history of individuals, nations or Peoples. Re-reading means rewriting. The history of civilizations is the property of human knowledge and there are no constants, as the means of knowledge develops new information that must be made known in writing this history.

The importance of the paper lies in highlighting the obstacles to rewriting the history of islam: lack of clarity of vision, lack of curriculum, poor planning capacity, as well as loss of collective spirit in which energies are integrated to achieve the goal, and other factors are the absence of autism in vision and lack of objectivity, and the existence of geographical barriers and political relations between the historians of the Islamic world and the lack of integration of specializations, as well as the lack of material and technical possibilities for large intellectual projects. There are prerequisites for rewriting Islamic history, the most important of which are:

1- The need for coordination between the interpretation and analysis of Islamic history is not easy

2- The historical criticism of the texts and their re-presentation in the strict scientific manner.

3- The balance between the study of political and military aspects and between civilized Data.

4- Subject The historical vision to analysis and scrutiny before its accreditation.

5- Relying on the construction of historical research on the same Reality.

6- A scientific union towards orientalists ' curricula and opinions in interpreting Islamic history.

7- The formation of new historians or the movement of researchers who are proud of their religion, culture and civilization.

The paper concluded that it is necessary to prepare researchers and historians to bear the burden of analyzing historical studies, taking advantage of the tools of the era and its renewable sciences to arrive at a new and honest Islamic history.

المقدمة:

إن فكرة إعادة قراءة أو كتابة التاريخ الإســـلامي أخذت منذ زمن بعيد تداعب أفكار العلماء المســـلمين وأدبهم, وذلك لإيمانهم بأن التأريخ ليس مادة جامدة لها مقدمات ولها نتائج ثابتة لا تختلف من شخص لآخر, بل هي مادة تكتب مئات المرات , لأنها تقوم على حادث حدث وكاتب كتب, بل هي مادة حية متحركة يدخل في تركيبه الحادث في حد ذاته ونظرة المؤرخ وعاطفته وميله وتحزبه إلى ذلك الحادث, ومثال ذلك أن الحادث يحدث أمام شخصين أو ثلاثة أو أكثر فينقله كل شخص بشكل مختلف قليلاً أو كثيراً عن الشخص الآخر تبعاً لهواه وعاطفته وميله ...الخ, فكيف إذا كان يروي رواية أو يحدث بخبر؟ ومن هنا كان الاختلاف في ســـرد حوادث التاريخ وتفسيرها.

وليس في هذا الاختلاف من عجب لأن المؤرخ ليس بآلة تصـــوير تلتقط الصـورة كما وقعت بكل دقائقها ولا هو ملاك مبرأ من العيوب ومعصـوم عن الخطأ ، بل هو إنسان يخطئ ويصيب ويغضب ويرضى ويحب ويكره وله شعور وإحساس وله رأي ولذا فإنه ينقل الحدث ممزوجاً بشعوره وإحساسه ورأيه وهو في كثير من الأحيان مخلص فيما يفعل ولكن إخلاصه من وجهة نظره لا من وجهة نظر الحقيقة والواقع.

فإن تشويه التأريخ الذي يحدث تحت سمعنا وبصرنا أعظم وأفظع لأننا نشوه عن علم وقصد.

غير أن الإنصاف يقتضي ألا نتهم كل من كتب التأريخ بتعمده تزييف التأريخ, ولكننا نستطيع أن نتهم بعضهم بذلك, ونحن مطمئنون إلى ما نقول, كما إننا نستطيع أن نتهم آخرين بالســـذاجة والنقل بلا روية ولا تمحيص ونتهم الجميع بغلبة العاطفة عليهم وهذا شيء طبيعي لا مفر منه, ولو لا هذه العاطفة لكانت آراء الناس واحدة.

فكتابة التأريخ تقتضي التحرر من الانتماءات السياسية والأيدولوجية والعاطفية والطائفية يجئ التأريخ خالٍ من العيوب من حيث المنهج والتحليل.

ضرورة إعادة كتابة التأريخ:

يعد التاريخ وإشكالية تفسيره من أكثر القضايا خصوبة في مجال الدراسات الإنسانية, وقد شيدت تحت اسمها مدارس متعددة لتفسير التاريخ, ضرب كل فريق منها بسهم, ومازالت قضية المنهج تحظى باهتمام الباحثين, ولقد بدأ اهتمام الإنسان بالتاريخ وتفسيره منذ فجر الخليقة وكان تفكير الإنسان وقتها تفكيراً أسطورياً حتى جاء الإسلام ووضع تصورات لعلم التاريخ وتفسيره.

إننا بحاجة إلى إعادة كتابة التأريخ على أن نكتبه بحرية تامة وتجرد ودقة وصبر وأن يكتبه بضعة علماء من مختلف الطوائف لا يكتبه شخص احد بل يكتبه بضعة أشخاص حتى إذا مال أحدهم أو حاد عن سواء السبيل سدده الآخرون, ويجب أن يكون هؤلاء المؤرخون أحراراً في تفكيرهم جرؤن في أقوالهم غير ملتزمين بفريق أو بطائفة أو فكرة, قادرين أن يزيلوا هالة القداســـة عن رؤوس بعض الناس وأن ينزلوهم منزلة البشر الذين يصيبون ويخطئون، وأن يعيدوا إلى بعض الناس اعتبارهم, فإذا وجد

من يقوم بهذا العمل على هذا الوجه كان لدينا تاريخ إسلامي صحيح, وإلا فالأولى أن نترك التأريخ على ما هو عليه ولا نزيده تشويهاً فوق تشويه[1].

فالتأريخ كما هو معلوم ليس شيئاً يكتب مرة واحدة، ولكنه مادة تكتب عشرات المرات وتعاد كتابتها باستمرار, سواء بسبب ظهور معلومات مستجدة عن أي صفحة من صفحات التأريخ, أو بسبب تطور في مذاهب التأريخ وفلسفاته, وظهور أدوات فكرية جديدة تستخدم في فهم التأريخ, أو بسبب ابسط وهو ظهور أي كاتب أو مؤرخ يجد في نفسه القدرة والرغبة على أن يدلي بدلوه في التعرض لموضوع ما من موضوعات التاريخ. أليس من المألوف أننا إذا أردنا الرجوع إلى موضوع من الموضوعات التاريخية أن نعود إلى الفهارس فنجد عشرات الكتب أو مئاتها, حسب أهمية الموضوع المكتوب عنه.

كتابة التأريخ إذن... تاريخ فرد أو أمة أو عالم, عملية بطبيعتها متجددة لا يصدر قرار ببدئها ولا يصدر قرار بإيقافها, وليس هذا جديد, كل ما في الأمر أن الشعوب في مراحل يقظتها الفكرية تزداد اهتماماً بتاريخها, تماماً كما تزداد اهتماماً بحاضرها ومستقبلها, فاليقظة لا تكون إلا شاملة. وبالتالي تشتد حركة التأليف عن التأريخ, ويزداد الناس إقبالاً على قراءته, وفي حالة الخمول تنام الأمم عن ماضيها ومستقبلها معاً. تستسلم لما وجدته مكتوباً عنها من قبل، ولما ترى أنه "مكتوب لها" في المستقبل[2]. وقد تطور تفسير التاريخ ومعرفة أسباب الحوادث مع الزمن متأثراً بالموضوع وبالمفسر, تطور الموضوع مع الزمن كماً بزيادة مادته بفعل التراكم الزمني واتساع رقعة مساحة الجغرافيا, كما تطور كيفاً بتقدم تقنية جمع معلوماته وتنويع مصادره وترقية نقدها وصولاً لمعرفة ما حدث على الحقيقة مما يساعد في تفسير أكثر صحة[3].

كما أن التأريخ ليس شيئاً يكتب مرة واحدة , كذلك ليس شيئاً تكتبه جهة واحدة, فليس هنالك فرد ولا جهة ولا دولة ولا مجموعة دول تحتكر كتابة التأريخ حتى لو كان

---

[1] أحمد بهاء الدين – إعادة كتابة التاريخ – (متى وأين ولماذا) ص91.

[2] أحمد بهاء الدين – مرجع سابق – ص96

[3] أحمد محمود بدر – تفسير التاريخ من الفترة الكلاسيكية إلي الفترة المعاصرة– مجلة عالم الفكر – أبريل يونيو 2001م ص 7

تاريخها, فلو أراد أحد أن يكتب عن تاريخ الغرب أو الصـــين أو أي بلاد أخرى, فلا يوجد أحد يملك منعه من ذلك, ولا يملك فرد أو مجتمع أن يمنع الغير من الكتابة عنها, وكلما كانت الحضـــارة غنية تتعدد جنســيات الذين يكتبون عنها, بل أن جامعة أمريكية مثلاً قد تنفق الملايين لترســـل علماءها إلى أبعد بلاد الدنيا لعمل حفريات ودراســات تاريخية عن موضــوع لا صــلة لها به. ذلك أن التأريخ والحضــارات ملك مشــترك للمعرفة الإنســانية كلها, ومرة أخرى نجد أن الشــعوب كلما زادت تقدماً, زاد اهتمامها بحضارات العالم كلها ... في مصر نجد أن الذين اكتشفوا حجر رشيد وفكوا أسرار اللغة الهيروغلوفية, فرنسيون, والذين كشفوا آثار وكنوز توت عنخ آمون إنجليز. والذين ينقبون عن آثار مدينة الفسطاط القديمة من جامعات أمريكية. وحضارة العرب أشبعها "المستشرقون" كتابة وتحليلاً... ونحن ترجمنا عنهم واستفدنا بهم, وهم روس وألمان وإنجليز وفرنسيون وهولنديون .... إلى آخره[1].

وأصـــحاب أي تاريخ يفرحون باهتمام الآخرين بهم. فما كان كل هؤلاء المستشرقون مثلاً ليهتموا بالحضارة العربية, ويقيموا لها مراكز الأبحاث في جامعاتهم وأقساماً خاصة في متاحفهم لولا أنها حضارة غنية وتاريخها مهم وأنها حلقة جوهرية في التأريخ الإنساني كله.

والمستشرق يبدأ بحثه وأمامه غاية حددها ونتيجة وصل إليها مقدماً, ثم يحاول إثباتها بعد ذلك,[2]والاستشراق يقوم على إثارة الشكوك في التاريخ الإسلامي.[3]

وحتى تتم مواجهة خطر مناهج الاســتشــراق في كتابة التاريخ الإســلامي وما ترتب عليها من أضرار فقد تعالت أصوات بالدعوة إلي ضرورة التفكير في إعادة كتابة التاريخ الإسلامي من جديد وعرضه عرضاً سليماً للأجيال من خلال وضع منهجية موضوعية دقيقة وأسلوب علمي هادف.[4]

---

[1] أحمد بهاء الدين – مرجع سابق – ص97

[2] عبدالعظيم الديب – المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإســلامي – ســلســلة كتاب الأمة قطر – عدد27– ص52.

[3] محمد فتحي عثمان – أضـــواء على التاريخ الإســـلامي–الدار الكويتية للدراســـة والنشـــر – الكويت1969م ص 62.

[4] عبدالله ناصـــر – كيف نعيد الأنظار إلي التاريخ الإســلامي – مجلة العربي – الكويت العدد299 السنه 26 ذي الحجة 1422هـ – ص35

إشكالية تفسير التأريخ عند المؤرخين المسلمين الأوائل:

من المعلوم أن الخلاف بين المؤرخين يكمن أساساً حول مسألة التفسير أو التأويل, أي معرفة الأسباب والعلل الكامنة وراء أحداث التأريخ ووقائعه. ذلك أن المؤرخ حين يؤرخ لموضوع ما عليه أن يجيب عن أسئلة ثلاثة أساسية هي: ماذا حدث؟ وكيف حدث؟ ولماذا حدث؟ والإجابة عن السؤالين الأوليين في الإجابة على السؤال الثالث, لا لشيء إلا لأنها تعكس منظور أو رأي المؤرخ الذي هو نتاج ثقافته أو أيديولوجيته. ومعلوم أن الأيديولوجيا تفت في مصداقية المعرفة وتلونها بألوان قد تكون مجافية للحقيقة ولعل هذا يفسر دعوة بعض المدارس التاريخية إلى التغاضي عن تفسير الوقائع التاريخية والاهتمام فقط بتحقيق مصداقية الأخبار. لكن هذه الدعوة تنقص من قدر ومكانة المؤرخ وكذلك من نتاج عمله وتجعله إخبارياً ليس إلا, وتحكم على جهوده بالقصور, لأن علماً بلا تعليل حكم ناقص في التحليل الأخير أو في خاتمة المطاف. فغاية العلم هي الوقوف على الأسباب والعلل التي تحرك الظواهر الطبيعية والإنسانية على السواء. ومن ثم أصبح قانون السببية أهم قوانين العلم على الإطلاق[1]. وفي مجال العلوم الإنسانية– ومن ضمنها التأريخ بطبيعة الحال– جرى الاهتمام بالتعليل أو التأويل أو التفسير إلى حد ظهور علم لهذا الغرض هو علم " الهرمينوطيقا " وهو مصطلح قديم بدأ استخدامه ي دوائر الدراسات اللاهوتية ليشير إلى مجموعة القواعد والمعايير التي يجب أن يتبعها المفسر لفهم النص الديني (الكتاب المقدس) والهرمينوطيقا هذا المعنى تختلف عن التفسير وهي أقرب إلى معنى التأويل[2]. وتعاظم دور هذا العلم إلى درجة الطموح إلى التنظير باعتباره أقصى درجات العلم وأسماها.

وبظهور الإسلام وجدنا أن القرآن الكريم قد عمق الإحساس التاريخي عند العرب حين قص عليهم قصص الأنبياء والأمم السابقة بهدف العظة والعبرة , وعلى يد

---

[1] محمود إسماعيل– إشكالية تفسير التاريخ عند المسلمين الأوائل – مجلة عالم الفكر – عدد أبريل يونيو 2001م – ص37.

[2] نصر حامد أبوزيد, إشكاليات القراءة وآليات التأويل , المركز الثقافي العربي, ط 7, ص 13

مؤرخي الإسلام انتهى عصر النقل وأتى عصر العقل والتعويل عليه الذي يعد ركناً أساسياً من أركان الإسلام الذي دعا إلي التدبر والتفكر في شتى أنواع المعرفة الإنسانية , وأصبح التاريخ علماً مكتمل البنيان مع جهود كبار المؤرخين أمثال الطبري (ت310هـ), ثم جاءت الطفرة على يد ابن خلدون (ت808هـ) الذي حدد قواعد البحث في التاريخ.[1] ويرتبط الحديث عن مناهج المسلمين في كتابة مناهج التاريخ الإسلامي بالحديث عن تدوين التاريخ والهدف منه, ومن المعلوم أن تقصي الرواة أدى إلي نشوء أحد فروع التاريخ عند العرب وهو تراجم الأشخاص وطبقاتهم, وتدوين السير والمغازي النبوية بحسب منهج الإسناد القائم على منهج الجرح والتعديل وذلك في القرن الثاني للهجرة إذ كان الهدف من تدوين التاريخ عند المسلمين يرتبط بمقتضيات دينية صرفة.[2]

واهتم الطبري بالإسناد وتسلسل الرواة ثم تدرج إلي إيراد الأخبار غير المسندة لأصحابها.[3] وظهر بعد ذلك مؤرخون ابتعدوا بالرواية التاريخية عن رواية الحديث منهم اليعقوبي (ت284هـ) والمسعودي (364هـ) اللذان اكتفيا بذكر المادة التاريخية في مقدمات الكتب والذي يعتبر تطوراً في أسلوب الكتابة فأصبح بسيطاً وواضحاً.[4]

وفي أوائل القرن الخامس الهجري أدخل ابن الجوزي التاريخ العالمي سداً للفراغ بعد توقف التجربة التاريخية, فقد أدخل تقسيماً فاصلاً بين الحوادث والوفيات وهو يشتمل على جميل الأخبار المطلوبة.[5]

ومعلوم أن نشأة علم التأريخ عند المسلمين كانت نشأة عملاقة, بشهادة جمهرة الباحثين والدارسين, لذلك اهتم المؤرخون الرواد بالتعليل والتفسير باعتباره مطلباً أساسياً

---

[1] أنور محمود زناتي – تصورات حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي – مجلة البيان – دراسات تاريخية – العدد 347- أبريل- مايو 2016م ص12

[2] محمد عبدالكريم الوافي – منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب- بنغازي – جامعة قاريونس ط1 1990م ص1

[3] محمد عبدالغني حسن _ علم التاريخ عند العرب – القاهرة 1962م ص167

[4] السيد عبدالعزيز سالم- مناهج البحث في التاريخ الإسلامي-الإسكندرية 1966م جزء 2 ص77

[5] عبدالعليم عبدالرحمن خضر – المسلمون وكتابة التاريخ – المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1981م ص74

لاكتمال عملية كتابة التأريخ, وتطورت جهود الأجيال التالية من مؤرخي الإسلام لتصل إلى درجة مرموقة في هذا المجال بولوج باب " فلسفة التأريخ"

وقد ولج المؤرخون المسلمون باب التفسير إلى حد التنظير منذ نشأة علم التأريخ الإسلامي في منتصف القرن الثاني الهجري وحتى منتصف القرن الخامس الهجري حيث بلغ تطور الفكر التاريخي ذروته. ولقد مرَّ الفكر التاريخي الإسلامي خلال هذه الفترة بحقب ثلاثة:

المرحلة الأولى: وهي طور النشأة وتبدأ من منتصف القرن الثاني إلى منتصف القرن الثالث الهجريين وهي فترة شهدت سيادة نمط الإنتاج البرجوازي على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي, ولنشأة العلوم وتدوينها، كانعكاس للمد الثقافي المتعاظم المعبر عن عطاء الطبقة الوسطى, وفي مجال علم التأريخ وضعت مناهجه وتحددت موضوعاته, وطرقَ المؤرخون باب التفسير على استحياء.

المرحلة الثانية: وتشمل الفترة ما بين منتصف القرنين الثالث والرابع الهجريين, فقد سادها نمط الإنتاج الإقطاعي الذي عكس تأثيره على سائر الأصعدة, ومنها الصعيد الثقافي بطبيعة الحال, إذ تأثرت النهضة العلمية والثقافية بغلبة الاتجاهات الغيبية والنصية على حساب المد العقلاني الذي لازم مرحلة التأسيس وبديهي أن يتأثر الفكر التاريخي موضوعاً ومنهجاً بالرؤية اللاهوتية.

المرحلة الثالثة: وهي تشمل الفترة ما بين منتصف القرنين الرابع والخامس الهجريين, فقد سادها النمط البرجوازي في الإنتاج مرة أخرى وأخيرة, الأمر الذي أسفر عن تأثيرات إيجابية سياسياً واجتماعياً وثقافياً وبديهي أن يتأثر الفكر التاريخي بتلك التحولات ليصل إلى أوج ازدهاره, حيث بلغ التفسير العلمي العقلاني للتأريخ مداه وشهد العصر بواكير فلسفة التأريخ[1].

في طور نشأة علم التاريخ الإسلامي, يتفق الدارسون على أن هذه النشأة الإيجابية كانت تعبير عن مد ثقافي مزدهر, باعتبار أن التاريخ من أهم مقومات الثقافة العربية[2].

---

[1] محمود إسماعيل – مرجع سابق – ص41–42

[2] جب هاملتون, دراسات في حضارة الإسلام, الترجمة العربية, بيروت, 1964م ص 153

وقد أسهم في تلك النشأة جيل من المؤرخين الأفذاذ, كالطبري , والبلاذري, وابن طيفور , واليعقوبي, وابن قتيبة, وابن عبد الحكم وغيرهم ممن اعتبرهم ابن خلدون رواد علم التاريخ في الإسلام[1]. وبتتبع منحى سير هؤلاء المؤرخين نجد أن معظمهم ينتمون إلى الطبقة الوسطى التي تبنت النهضة العلمية والفكرية في الإسلام, فكانوا موسوعي الثقافة ليبرالي التفكير بما أهلهم لتأصيل ركائز علم التاريخ موضوعاً ومنهجاً ورؤية[2]. كما انصب جل اهتمام المؤرخين في هذه الفترات على الأخبار وتحقيقها, لكنهم لم يغفلوا تعليلها وتحليلها وفي هذا المعنى ذكر اليعقوبي: " وليعلم الناظر في كتابنا هذا في اعتمادي في كل ما أخطرت ذكره فيه مما شرطت أنى راسمة فيه إنما هو على ما رويت من أخبار التي أنا ذاكرها فيه والآثار التي أنا مسندها إلى رواياتهم, دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل"[3]

والدارس لأخبار اليعقوبي لا يعدم وجود رؤية خاصة للتاريخ فحواها الربط بين حركة الأحداث وحركة الأفلاك, وعند غيره من معاصريه نقف على رؤى أخرى علمية, فالبلاذري مثلاً: يعول على تأثير الاقتصاد في الصيرورة التاريخية في كثير من الأحيان. أما ابن قتيبة فهو يمحور وقائع العصر الراشدي حول مسألة الصراع على الخلافة, واتخذ بعض المؤرخين من ذكر عبارات معينة في مواضع بعينها أيضاً, مثل " والله أعلم" مما يدل على موقف معتمد للمؤرخ يفهمه القارئ اللبيب, نظراً لوجود محاذير تحول دون الإفصاح, فمعلوم أن الحنابلة قد رجموا دار الطبري بالحجارة.[4]

لعل تلك المحاذير كانت من وراء تبني بعض المؤرخين تفسيرات أسطورية أوردوها من باب التقية, كذلك تعويل البعض الآخر على التفسيرات العنصرية والطائفية تحت تأثير تواجد الشعوبية والصراعات المذهبية[5].

فمن الطبيعي أن يتأثر الفكر في كتابة التاريخ بتلك المعطيات السلبية, ولا أدل على ذلك من تدهور مكانة علم التاريخ في نظر مصنفي العلوم فأسقطوه بالكلية

---

[1] ابن خلدون– المقدمة تحقيق عبدالواحد وافي– القاهرة, ب ت – ص4

[2] محمود إسماعيل : سولوجيا الفكر الإسلامي, الدار البيضاء, 1981م– ج 1, ص 186

[3] البلاذري– فتوح البلدان, لندن 1891م– ص 358

[4] ياقوت الحموي, معجم الأدباء, ج 18, طهران 1965م – ص 59

[5] – محمود إسماعيل – مرجع سابق – ص298

من مصـــنفاتهم باعتباره يفتقد إلى صـــفة العلمية[1]. وهو أمر لفت نظر مؤرخ فذ كالمسعودي , حين اعتبر مؤرخي العصر مسؤولين عن تدهور علم التاريخ وإبادة آثاره وطمس مناره ، خصوصاً من أصبح منهم من مؤرخي "البلاط" أو ممن اشتغل بالتاريخ خدمة لعلم الحديث بالأساس, فكانوا بذلك محدثين أكثر من أنهم مؤرخين, بشهادة ابن النديم, لذلك لم نحيد عن الصـــواب إذا اعتبرناهم أنصـــاف مؤرخين, لفهم غاية التاريخ فهماً قاصراً مؤداه التبرير لهم، فصنف فيها الوراقين وكذبوا[2]، [3]،[4].

لقد أفسـد مؤرخو السـلطة علم التاريخ إلى حد تطويع الدين لخدمة السـلطان. وجرى اعتبار ثوراتهم الاجتماعية من قبيل "المحن" و "الفتن" التي يجب أن يقمعها السـلطان دون هوادة.(صـنف الشـيباني (ت 273هـ) كتابين يحملان هذين العنوانين أي المحن والفتن)، فمن الطبيعي أن تنزلق رؤى المؤرخين وطريقتهم في كتابة التاريخ إلى تأثير التفسـيرات الأسـطورية والوثنية والطائفية وتقديس الأبطال المؤيدين بالعناية الإلهية, كما فشت الرؤى التهومية التي تربط حركة الأحداث بالطوالع والنجوم[5].

أما عن مؤرخي المعارضـــة فقد احتفظ بعضـــهم بالكثير من إيجابيات مرحلة التأسيس, فكتبوا التاريخ على أساس "الدراية" لا " الرواية) معولين في التفسير والتعليل على العقلانية والمنطق منددين بمفاسد السلطة ورجالتها[6].

ومع هذا أثر البعض الآخر سـلباً بمعطيات العصـر السـياسـية والثقافية فلم تخلو مصـنفاتهم من تعويم الرؤية والشـطط في الرأي. لقد كتب هؤلاء في الغالب الأعم وفق منطق "الدفاع" عن مذاهبهم وأيدولوجياتهم, فاتسمت كتاباتهم بالسجالية والتعصب. كما روجوا إلى أفكار تهومية أسطورية كفكرة "المهدي" أو "المخلص" مما أضعف قيمة ما أنتجوا وصنفوا من تواريخ دارت معظمها حول عقائد مذاهبهم ورجالاتهم.

---

[1] روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين, الترجمة العربية, بغداد 1964م– ص 48

[2] المسعودي, مروج الذهب ومعادن الجوهر , ج 1, بيروت, د ت, ص5

[3] بروكلمان– تاريخ الأدب العربي– الترجمة العربية– القاهرة, 1991م, ج3– ص68

[4] ابن النديم– الفهرست– القاهرة, 1348هـ, ص 242,241

[5] سالم أحمد محل: المنظور الحضاري في التدوين التاريخي, قطر, 1997م, ص 121

[6] ابن النديم– مرجع سابق– ص 146–151

فعلى سبيل المثال أرخ شليمة محمد بن الحسن (ت 280هـ) لبعض حركات المعارضة, ولكن كتابه صودر وأحرق, كما دون سعد بن عبدالله القمي (ت 299هـ) كتاباً عن الشيعة لاقى المصير نفسه. وإن أفلت كتاب " مقاتل الطالبيين "للأصفهاني من المصادرة, فيعد أنموذجاً للكتابات ذات الطابع المأساوي "بكائ" التي تتعالى فيها التشنجات العاطفية على التفسيرات العقلانية. على أن الرؤى العقلانية لم تختفِ تماماً خصوصاً عند نفر من مؤرخي المعارضة, بل لا نعدم وجود ثلة من المؤرخين الذين ارتقوا بالكتابة التاريخية موضوعاً ومنهجاً, تعليلاً وتحليلاً وتأويلاً, ويرجع ذلك إلى أن الصراع بين البرجوازية (الأغنياء) والإقطاع (الفقراء) – ومن ثم بين العقل والنقل– لم يحسم حسماً قاطعاً, مما أتاح للقوى البرجوازية وفكرها العقلاني النقدي التجريبي مكاناً في الساحة وإن كان ضيقاً ومحاصراً. وفي هذا الصدد يعد المسعودي (ت 346هـ) المؤرخ أنموذجاً معبراً عن هذا التيار , الأمر الذي يجعلنا نتوقف عنده ملياً للوقوف على رؤيته العلمية للتاريخ. [1]

ولعل في حياة المسعودي إبان أواخر عصر الإقطاع وأوائل عصر الصحوة البرجوازية الثانية ما يلقي الضوء على عقلانية وموسوعيته. يضاف إلى ذلك كونه تاجراً ينتمي إلى الطبقة الوسطى اجتماعياً, وإلى الاعتزال الزيدية مذهبياً, مما أهله ليتسم بمكانة مرموقة بين مؤرخي عصره, ولعل اشتغاله بالجغرافيا ومزجه إياها بالتاريخ وتعويله على الرحلات طوال الأربعين عاماً كان من وراء اتساع منظوره ورحابة خياله، ومن ثم اتسام رؤيته التاريخية بالعقلانية والواقعية والشمول[2].

في كتابه "مروج الذهب" تاريخ عالمي متطور, بالقياس للتواريخ العالمية السابقة. ففي عرضه للأحداث مزج بين التاريخ وعلم الكلام. فالعالم في نظره مخلوق كما يذهب المعتزلة. وفي وصفه للأمم والشعوب مزج بين الأثنوغرافيا والثقافة. أو وقوفه على ما يمكن تسميته بـــ "الانثربولوجيا الثقافية" ومعلوماته الجغرافية حافة بالتأويلات والتفسيرات التي تربط بين حركة التاريخ وحركة الكواكب وكذلك بينه وبين

---

[1] محمود إسماعيل – مجلة عالم الفكر –مرجع سابق – ص44–45

[2] المسعودي – مروج الذهب ومعادن الجوهر, ج 1 بيروت, ب ت– ص 4

الجغرافيا الطبيعية. وفي هذا الصدد وقف على تأثير التربة في الإنتاج الغذائي وتأثير الأخير في طبائع وأمزجة البشر. [1]

وحين عرض للعرب رصد أنماط حياتهم بين مرحلتي البداوة "التوحيش" والحضارة, مقدماً تصوراً متطوراً لطبيعة العمران البشري[2]. وتأثر به ابن خلدون فيما بعد. وفي تاريخه للعالم الإسلامي اتسمت رؤيته بالشمول, فجمعت بين التاريخ السياسي والحضاري في آن, كما أعمل ميزان النقد في الروايات قبل اعتمادها, الدرجة نفسها التي عول فيها على الاستقراء والاستنباط في مجال التفسير[3].

وكذلك نستطيع أن نقرر أنه طرق باب التنظير حيث عول على شمول النظرة خلال الأزمنة الطويلة فاتح له "استخراج كل دقيق من معدته, وإثارة كل نفيس من مكمنه" على حد قوله[4].

وفي كتابه "التنبيه والإشراف" نجد بداية مقاربة " فلسفة التاريخ" ذلك أن هذا الكتاب يعد آخر ما صنف المسعودي, كما أنه بمثابة بانوراما عامة لتاريخ البشرية, أفاد فيه من مؤلفاته السابقة, فلم يحفل فيه بالأخبار وتحقيقها بقدر استنطاقها لتتبلور في صورة أحكام ومقولات أفاد في صياغتها من سائر المعارف المتاحة, فقد أبرز – مثلاً– تأثر الجغرافيا في التاريخ السياسي, فعرض لمباحث أقرب ما تكون "بالجيوبوليطيقا" كما عرض لتاريخ العقائد في مباحث ذات صلة بالانثروبولوجيا الثقافية وعلم الأديان المقارن, حيث تابع ورصد المشترك الإنساني العام في مجال الدين مبرزا "التواصل" و "الاستمرارية" في صورة أقرب ما تكون إلى "الإنسانيات" المعاصرة, ولا غرو فقد تابع تأثيرها في التاريخ والحضارة الإسلامية, بما ينم عن نزعة "هيوماتية" بعيدة عن التعصب والتحجر.

وفي عرضه للتاريخ الإسلامي أبرز أسباب العلل المباشرة والعامة, فطرق مجال الرأي والرؤية في آن واحد. فإذا أُضيف إلى ذلك إحكامه الصلة بين المعارف

---

[1] المسعودي – مصدر سابق – ص84

[2] المصدر نفسه – ص137

[3] شاكر مصطفى, التاريخ والمؤرخون العرب, ج 1, بيروت, 1983م, ص 204

[4] المسعودي – مصدر سابق – ص6

المختلفة لتدخل ضـــمن موضـــوع التاريخ. نؤكد صـــدق حكم بعض الباحثين بأن المسعودي قدم رؤية حضارية للتاريخ.

يعد المسـعودي من رواد فلسـفة التاريخ ولا شـك في ذلك إذ نجد في مصـنفه ما يشـــئ بالرؤية البيولوجية للتاريخ حيث تحدث عن نشـــأة الدول وشـــبابها وهرمها وعلل جميع ذلك, ودعوته إلى ضرورة معرفة المؤرخ كيف تدخل الآفات على الملك و الدول, وتبدد الشرائح والملل, والآفات الخارجية المفترضـة لذلك, لقد وقف بحق على ما اسماه فلاســفة التاريخ المحدثون بالموضــوعية التي هي نتاج عوامل داخلية وأخرى خارجية تتضـافر معاً لإحداث حركية التاريخ وصـيرورته. هذا فضـلاً عن شـمول هذه الصـيرورة لســائر الظواهر المادية والروحية التي توحدت في خيال المســعودي وتأطرت في ذهنه تأطيراً عقلانياً كانت جهود المســعودي في مجال التفســير والتنظير مدخلاً أســاســياً لازدهار الفكر التاريخي خلال القرن من منتصـــف القرن الرابع إلى منتصـــف القرن الخامس الهجريين– الذي شهد صحوة برجوازية تركت أثراً إيجابياً في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة[1].

معوقات إعادة كتابة التاريخ الإسلامي:

ثمة أسباب عديدة وقفت في طريق تحقيق هذا الهدف, فإذا استطعنا أن نعرف هذه الأســـباب, ســـهل لنا بذلك معرفة موطن الداء والعمل على علاجه, فمن هذه الأسباب على سبيل المثال لا الحصر وفق ما توصل إليه المفكر والباحث عماد الدين خليل :

أولاً: عدم وضـوح الرؤية بالنسـبة لطبيعة العمل، فمن قائل بضـرورة إعادة كتابة التاريخ الإسـلامي كله من أقصـاه إلى أقصـاه، واعتماد بنية جديدة لوقائعه وصـيرورته ترفض بالكلية ما قدمه مؤرخنا القديم، ومن قائل لضـــرورة اعتماد صـــيغة انتقائية تأخذ بهذا وترفض ذاك, ومن قائل بضــرورة إعادة تفســير وتحليل معطيات هذا التاريخ بدلاً من إعادة تركيبه. وآخرون لا يعرفون على وجه الدقة واليقين ما الذي يقصـــدونه بالعمل المنشود؛ لأن الضباب يلف تصورهم فلا يتيح لهم الفرصة لاستبانة ملامح الطريق.

---

[1] محمود إسماعيل – مجلة عالم الفكر – مرجع سابق – ص45–46

ثانياً: ومما يرتبط بهذا, غياب المنهج وضـــعف القدرة على التخطيط.. فقد تتضـــح الرؤية أحياناً, وتتحدد طبيعة العمل, وتتكشـف أبعاده.. لكن أسـلوب العمل وطرائقه.. المنهج – بعبارة أخرى– غير متحقق ونحن قوم – ولنقلها بصـراحة– نعاني ضـعفاً في قدراتنا التخطيطية, ليس هذا مجال اسـتعراض أسـبابه, ولشـد ما ينعكس هذا الضـعف على طرح برنامج عمل محدد الخطوات, مكتمل المفردات, مثبت الأهداف والغايات.

ثالثاً: ونحن قوم نعاني – كذلك– من فقدان الروح الجماعية التي علمنا إياها هذا الدين, وربانا عليها وألزمنا بها, ولكن تخلينا نحن عن الكثير من مقولاتها ومواصـفاتها, وتجمدت تقاليدنا على صـــيغ فردية قد تبلغ حد الأثرة والأنانية في كثير من الأحيان, فتمحو القدرة على التوجه الجماعي الذي تتكامل فيه الطاقات وتتضافر القدرات ويتدفق العطاء لكي يصب في الهدف الواحد.

والمشـــاريع الكبيرة في ميادين العقيدة أو الفكر أو العمران أو الاقتصـــاد, لهي بأمسَّ الحاجة إلى هذه الروح الجماعية التي يعرف الغربيون كيف يعتمدون عليها لتحقيق الأعاجيب والمعجزات في ميادين الإنجاز.... وإعادة عرض التأريخ الإسلامي, أو تحليله, ويوم نتحقق ثانية بروح الفريق كما أراد لنا الإســـلام أن نكون , يوم نتجاوز الفرديات والحساسيات والأنانيات صوب ما هو أكبر وأشمل حينذاك نستطيع أن نضع خطواتنا على الطريق[1].

رابعاً: غياب التوحد في الرؤية.. وليس بمقدور فريق من المؤرخين يتجه بعضـهم يميناً ويمضي بعضهم الآخر شمالاً, أن يحققوا الهدف المنشود.. وكيف سيكون العمل الذي يفترض أن يتوحد نسـيجه, كيف سـيكون؟ إذا كان بعض النسـاجين ليبرالياً والبعض الآخر مادياً, وكان البعض الثالث متصـــوفاً, والبعض الرابع إقليمياً والبعض الخامس مصلحياً؟ كيف سيتحقق مشروع يراد منه تقديم تحليل موحد لمجرى التأريخ الإسلامي إذا كان بعض مساحاته منسوجة بالقطن, وأخرى بالصوف وثالثة بالحرير. إنه لأمر مستحيل بل هو مدعاة للسخرية.

---

[1] عماد الدين خليل – حول إعادة كتابة التاريخ – ط1 –دار ابن كثير للطباعة والنشـــر –بيروت– 2005م ص14

خامســـاً: وثمة ما يراد أحياناً بمشـــروع كهذا احتواؤه عقيدياً, وتوظيفه من أجل هذه الايديولوجية أو تلك.. وهذا نقيض الموضوعية .. والموضوعية شرط حاسم من شروط البحث العلمي الجاد.. ثم أن محاولات كهذه قد تملك المال والقدرة, ولكنها لا تملك النَّفس الطويل الذي يمكنها من المضـــي في الطريق حتى النهاية... ذلك أنها رهينة لظروف مرحلية ومتغيرات زمنية.. وسرعان ما تتوقف بتحول صيغ معادلات الظروف المرحلية للمتغيرات الزمنية.

سادساً: وقد يرتبط بهذا انعدام النية الصادقة وتحويل الدعوة إلى عمل دعائي صرف.. والأعمال بالنيات – كما يقول رسولنا عليه الصلاة والسلام– ولكل أمرئ ما نوى.. وإذا طال الطريق بين النية والفعل, بســـبب ضـــخامة العمل وانفســـاح المدى, فلا تؤمن العواقب, وربما يكتفي بالمظاهر الســـريعة الخاطفة بدلاً من الجوهر المخبوء, صـــعب المنال.

سابعاً: وقد تلعب الحواجز الجغرافية والسياسية بين مؤرخي عالم الإسلام, والتي تتزايد بمرور الأيام, دورها في إعاقة المهمة وعرقلة مضـــيها إلى الهدف المرتجى.. فكلما تنادى حشـــد من المؤرخين.. هنا وهناك, لتنفيذ هذا الطلب المُلَّح, وجدوا في طريقهم من الأســـلاك الشـــائكة والعقبات, ما يجعل تحركهم صـــعباً قاســـياً, ومهمتهم مستحيلة, ويعودون من حيث جاءوا.

ثامناً: يرتبط هذا – أحياناً– نقص ملحوظ في الاختصـــاصـــات وعدم تكمها أحياناً.. فهي قد تتزايد في جانب ما وتشـــح في جانب آخر.. تبرز وتطغى في هذه المرحلة, وتنزوي وتذوى في مرحلة أخرى, والأعمال الجماعية, مالم تتحقق بالتوازن والتكامل والتغطية لكافة الجوانب والمساحات فلن يرجى تنفيذها .. وإعادة كتابة التاريخ الإسـلامي أو عرضـه أو تحليله , مشـروع كبير , فما لم تتبناه وتدعمه مؤسـسـة قديرة على لم الطاقات وتوفير الاختصـــاصـــات المتكاملة وتوازنها.. باء بالفشـــل المحتوم.. ولهذا كان هذا الفشـل المحتوم مصـير عديد من المحاولات التي لا تملك دعماً يمكنها من التكامل ...

تاســـعاً: وما يقال عن هذا يمكن أن يقال عن قلة الإمكانات المادية والفنية لكل مشروع يدَّعي القدرة على العمل بعيداً عن الدعم والإسناد.. والإمكانيات المادية والفنية

ضرورة من ضرورات المشاريع الفكرية الكبيرة, وإلا كنا كمن يرجو من ماكنة ضخ لا تتجاوز العشرين حصاناً أن تسقي مزرعة تمتد مسافاتها إلى مئات الأفدنة وألوفها.

عاشراً: ذلك الإحساس المتزايد بالإحباط , والذي يتراكم إثر فشل كل محاولة وإخفاق كل مشروع بعد أن يمضي خطوات فحسب في الطريق يكبل الإرادة المسلمة من الداخل بالغل الذي يشلها عن التهيؤ, وشحن الطاقة, والانطلاق لتنفيذ الأعمال الكبيرة[1] وما لم نتكاتف لإنقاذ الدعوة من مزيد من الإخفاقات, فإن الإحساس بالإحباط سينزع المبادرة من أيدينا, وسيسلمنا إلى الشلل المحتوم.

وبالتحقق بالبدائل في مقابل هذا كله يمكن أن نضع خطواتنا على الطريق, ونمضي بجد نحو الهدف المنشود. أن يكون رؤيتنا لطبيعة العمل على قدر كبير من النقاء والتكشف والوضوح, وأن نملك منهجاً سليماً للعمل, وقدرات ذكية على البرمجة والتخطيط.. وأن تنمو في سلوكنا وتتغلغل في دمنا روح الفريق كما أراد لنا ديننا أن نكون, هنالك حيث تذوب المصالح الخاصة والتوجهات الفردية والحساسيات الذاتية والأنانيات، وحيث تكون روح الجماعة وحدها هي المؤشر والدليل.

كذلك يتوجب أن تتوحد رؤيتنا وأن يمسك بها قاسم عقيدي مشترك يمنعها من التفتت والتناقص والتصادم، كمنطلق واحد وتوجه واحد ونسيج واحد في العطاء تركيباً وتحليلا[2]. والنية المخلصة الصادقة من وراء العم؛ بل هي كتربة جاذبة إذا ما أريد للمحاولة أن تكون شجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤت أكلها كل حين.. وإلا فليس ثمة إلا الشجرة الخبيثة التي ما لها من غرار، تعصف بها ذات اليمين وذات الشمال رياح التشريق والتغريب، وتقذفها عواصف الأهواء والنزعات والميول. أما زوال الحواجز الجغرافية والسياسية، فإننا في عصر السرعة، والاختزال، والاتصالات الخاطفة والآلات الحاسبة، وعصر التواصل الثقافي والإعلامي اليومي، وأن هنالك من القدرات والإمكانات ما يمكن توظيفه لضرب الحواجز وإمكانية العمل كفريق واحد من خلال وسائل التواصل للأعمال الموسوعية والكتابات التاريخية.

---

[1] عماد الدين خليل– مرجع سابق– ص 16

[2] المرجع نفسه – ص17

ومسألة تكامل الاختصاصات وتحقيق التغطية المتوازنة الشاملة لكافة مساحات المشـــروع أمر ليس صـــعب المنال في عصـــر الأكاديمية، حيث يزداد الخريجون والمتخصصون، سنة بعد سنة ويوماً بعد يوم, بمعدل متواليات هندسية وليست حسابية على أية حال... صـــحيح أن هذا التدفق الأكاديمي قد يطرح كميات لا تتضـــمن قدراً طيباً من التميز النوعي، إلا أنها – على كل حال– فرصـــة طيبة لتزايد العناصـــر الممتازة القديرة على الفعل الصادق والتنفيذ الذكي المرسوم.

أما قلة الإمكانات المادية والفنية فهي ولا ريب أقل الموانع شـــأناً؛ لأن إيجاد الشروط المادية الفنية وتوظيفها لخدمة المشروع أمر سهل المنال يسير التحقيق في بلاد تملك الكثير وتقدر على استيراد الكثير.

ويوم أن تتحقق هذه البدائل الإيجابية، وتوضـــع اللمســـات الأولى، وتنطلق الخطوات جادة مسرعة صوب الهدف، يومها لن يكون ثمة إحساس بالإحباط يشل الفاعلية ويكبل الخطى عن الانطلاق.. على العكس فإن الإنجاز الذي ســـتنفذه المحاولة ســـيحقق نوعاً من التســـارع في القدرة على الفعل.. هنالك حيث تختصـــر المسافات وتختزل حيثيات الزمان والمكان[1]

الشروط الأساسية لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي:

حتى إذا بلغنا منهج العمل لكتابة تاريخنا الإسلامي, أو إعادة عرضه وتحليله, استطعنا، على ضوء المعطيات آنفة الذكر، ملاحظة حشد من الشروط الأساسية التي يجب اعتمادها وأكثرها أهمية:

1/ التأكد من ضرورة ملاحظة ملامح التفسير الإسلامي للتاريخ من جه القيم الأساسية التي يتمخض عنها تحليل التاريخ الإسلامي نفس، في توجهاته الشمولية من جهة أخرى... والالتزام بمؤشـراتها ومعطياتها كنقاط ارتكاز ومنطلقات عمل، من أجل أن يأتي النسيج متوحداً، ومن أجل تجاوز التضارب والارتطام والتفتت في المعطيات.

2/ يتوجب الالتفات منذ البداية إلى حقيقة أن العمل التاريخي الجاد بحاجة إلى البناة، الذين يملكون الحس النقدي بطبيعة الحال في أكثر منه إلى نقاد.. أن قضـــايا كثيرة في تاريخنا وحضـارتنا لا تزال تنتظر من يكشـف عنها النقاب, أو يعيد عرضـها

[1] عماد خليل– مرجع سابق ص 18–19

بالأسلوب الذي يقدمها كما تخلقت قبلاً .. أما ملاحقة معطيات الآخرين، كشفاً عن خطأ فيها، ودفاعاً عن قيمة ما في تاريخنا وفكرنا، فيبدوا أمراً ثانوياً يجب أن لا يحتل الخط الأمامي. ومع ذلك فإن العملية النقدية، ما دامت تتضمن قدراً من الإنجاز البنائي في جانب من جوانب الفكر أو التاريخ, تغدو جديرة بالممارسة هي أخرى شرط ألا تكون هدفاً بحد ذاتها.

3/ تحقيق قدر من التوازن بين دراسة الجوانب السياسية، العسكرية، وبين فحص وتحليل الجوانب الحضارية، مع الأخذ في الاعتبار ضرورة أن ينظر إلى المعطيات الحضارية باعتبارها أجزاء متفرقة تنتمي إلى كل أوسع يتضمنها جميعاً ويمنحها معنى وهدفاً.

وليس من الضروري بصدد هذه النقطة, أن يقف الباحثون عند سائر التفاصيل والجزئيات التي تعج بها مصادرنا القديمة, وبخاصة فيما يتعلق بالجوانب السياسية والعسكرية من تاريخنا, وليس من الضروري أن يقع الباحث أسير هذا الحشد الزاخر من النصوص.

ولابد له – إذن– من أن يتجاوز الجزئيات إلا الكليات والوقائع الصغيرة إلى الدلالات الخطيرة, ولا يقف عند حدود النص أو الواقعة, بل يتعداها إلى معناها العميق ودلالاتها الموحية, وحينذاك سيقدر على تحقيق عملية الاختزال والتركيز, إذ إن كل مجموعة من التفاصيل والجزئيات تندرج تحت هذا المعنى أو ذاك, وتمنحنا هذه الدلالة أو تلك، في سياق الحركة التاريخية الأكبر حجماً، ومن ثم تغدو هذه الجزئيات عبارة عن مواد كمية, أو نماذج متشابهة, يمكن اعتماد عدد محدود من عيناتها للتوصل إلى الصيغة البنائية الأكبر للواقعة التاريخية, والتخلص بالتالي , من رام التفاصيل الذي يثير من الإرباك في ذهن القارئ أكثر مما يحقق من سيطرة على الحركة التاريخية وتفهم صيرورتها[1].

4/ الأخذ بأسلوب نقدي رصين في التعامل مع الروايات التي قدمتها مصادرنا القديمة, وعدم التسليم المطلق بكل ما يطرحه مؤرخنا القديم, وإحالة الرواية التاريخية قبل التسليم النهائي بها, ويمكن الإفادة في مجال النقد الخارجي – إلى حد ما– من

[1] عماد خليل– مرجع سابق ص 83–84

علمي (مصـــطلح الحديث) و (الجرح والتعديل) اللذين مورســا على نطاق واســع في عمليات تمحيص الحديث النبوي, ومن كتب التراجم الفنية الحقبة, فما من أمة عنيت بتمحيص مصادر أخبارها وتاريخها كالأمة الإسلامية.

ولابد من الإشـــارة هنا إلى الملاحظة القيمة التي أيدها محي الدين الخطيب, حول هذا الموضــوع؛ فهو يشــير إلى أن تاريخ الطبري الكبير: " لا يمكن الانتفاع بما فيـه من الأخبـار إلا بـالرجوع إلى تراجم رواتـه في كتـب الجرح والتعديل. وإن كتب مصطلح الحديث تبين الصفات اللازمة للراوي, ومتى يجوز الأخذ برواية المخالف. ولا نعرف أمة عن مؤرخوها بتمحيص الأخبار وبيان درجاتها وشـــروط الانتفاع بها, كما عنى بذلك علماء المسلمين وإن العلم بذلك من لوازم الاشتغال بالتاريخ الإسلامي, ولو تمكنوا من علم ومصـــطلح الحديث, وانســـوا بكتب الجرح والتعديل, واهتموا برواة كل خبر, لاستطاعوا أن يعيشوا في جو التاريخ الإسلامي, ولتمكنوا من التمييز بين غث الأخبار وثمينها, ولعرفوا للأخبار أقدارها بوقوفهم على أقدار أصحابها[1].

5/ يقابل هذا بضـــرورة الاعتماد في بناء البحث التاريخي على الواقعة نفســـها دون الوقوع في مظنة اعتماد هياكل مرسـومة مسـبقاً, ووجهات نظر مصـنوعة سـلفاً, ومحاولة تطويع الوقائع وإرغامها على الانســـجام مع هذه الهياكل والوجهات, حتى لو أدى هذا إلى تشـــويه ملامح الواقعة التاريخية, أو إعادة تركيبها, لكي تنســـجم والإطروحات المسـبقة, مما نجده واضـحاً – على سـبيل المثال– في الدراسـات التي تنطلق من المفهوم المادي في تفســـير التاريخ, الأمر الذي أوقعها في حشـــد من الأخطاء والتناقضـات. نجد مثلاً في موقفهم من حركة الرسـول ﷺ فبعضـهم يرى أن المجتمع العربي (في مكة والمدينة) شـهد بداية تكوين مجتمع يمتلك الرقيق, بينما يرى (بيجو لفســـكابا) أن القرآن الكريم يشـــعر بتركيز مرحلة ملكية الرقيق , ويذهب مع (بلاييف) إلى أن المرحلة الإقطاعية هي من آثار اتصـال العرب بالشـعوب الأخرى. هذا ويرى آخرون أن المجتمع الإقطاعي بدأ بالتكوين فعلاً.

---

[1] محب الدين الخطيب–المراجع الأولى في تاريخنا, مجلة الأزهر, المجلد 24, ج 5, صـــفر 1372هـ, ص 210

ومنهم من يرى أن الإسلام يلائم مصالح الطبقات المستغلة الجديدة من ملاك وإرســـتقراطية الإقطاع مثل (كليموفيج) في حين أن البعض مثل (بلاييف) يرى أن الإســلام المتمثل بالقرآن لا يلائم المصــالح الســياســية والاجتماعية للطبقات الحاكمة, فلجأ أصحابه إلى الوضع في الحديث لتبرير الاستغلال الطبقي الجديد. وفي حين أن بعضــهم يقول إن الأرســتقراطية وحَّدت القبائل العربية لتحقيق أغراضــها ويضــطرب الموقف من نشأة الإسلام ذاته, فيذهب (تولستوف) إلى نفي وجود النبي العربي ويعتبره شخصية أسطورية. وبينما يعترف البعض بظهور الإسلام يذهب (كليموفيج) إلى أن جزءاً كبيراً منه ظهر فيما بعد في مصــلحة الإقطاعيين ونســب أصــله إلى فعاليات معجزة محمد ﷺ[1].

6/ كما يجب علينا في مقابل هذا وذاك, اتخاذ موقف علمي تجاه معطيات – المستشرقين الغربيين والشرقيين– على مستوى المنهج والموضوع، وعدم التسليم المطلق بها أو تجاوزها كلية, لأن هذه المعطيات تتضـــمن الجيد والردئ... الأبيض والأسود... والموقف الجاد هو الذي يعرف كيف يفيد مما تقدمه الحركة الإستشراقية دون الوقوع في أسرها على حساب الحقيقة التاريخية.

إنَّ مناهج البحث الغربية لا يمكنها بحال أن تقدم تفسيراً معقولاً شاملاً متماسكاً لتاريخنا الإسلامي, فهي إن نجحت في تفسير وتقويم التاريخ الغربي, فستخفق حتماً في تفسير وتقويم التاريخ الإسلامي . ذلك أنها مناهج لا تقوم على أساس (متوازن) ينظر إلى القيم الروحية والمادية كعوامل فعالة مشـــتركة في صـــنع التاريخ, بل على العكس, تســـعى بدافع من المادية أو العلمانية, إلى ترجيح الدافع المادي وتقليص مساحة الدوافع الروحية في حركة التاريخ, بل طمسها أحياناً, وإنكارها أساساً في أحيان ثالثة, كعوامل في صيرورة التاريخ البشري.[2]

7/ ومن أشد متطلبات (إعادة كتابة التاريخ الإسلامي)– أو عرضه أو تحليله– إلحاحاً هي تخريج وتكوين مثقفين معتزين بتاريخهم وأمتهم وحضـــارتهم, شـــاعرين في

---

[1] عبد العزيز الدوري– تفسير التاريخ, مقال التاريخ والحاضر , منشورات مكتبة النهضة, بغداد 1963م –ص27

[2] عماد الدين خليل, مرجع سابق, ص .89

قرارة نفوسهم بالاعتداد الثقافي والحضاري على بقية الأمم والتواريخ والحضارات, لا سيما وأن الشرق عامة, والأمة الإسلامية خاصة, تمثل في حضارتها لقاءات معطاءة بين السماء والأرض, وتنبثق – في كثير من الأحيان– عن مصادر عليا للمعرفة والتوجيه, وإن هذه النقطة بالذات هي ما يجب أن يؤكد عليه دائماً في منهج البحث الجديد لكي نغرس في كيان المثقفين مشاعر الاعتداد, وإبعاد أي شعور بالنقص تجاه الحضارات الأخرى, وقطع الطريق على أية محاولة لتعزيز التبعية الفكرية لدى هؤلاء[1].

ثم إن هذه المذاهب الغربية – من جهة ثالثة– عندما تدرس تاريخنا بالذات تتحكم فيها عصبيات شتى ورواسب نفسية ومخلفات ثقافية تاريخية, وأطماع سياسية واقتصادية, وتحزبات دينية مذهبية وأيدولجية وعرقية لكونها نشأت وتبلورت في القرن الذي بلغت فيه حركة الاستعمار القديم للعالم الإسلامي المتعب أوجها.

سلاح المؤرخ الجديد:

إنَّ تاريخنا الإسلامي لفي حاجة ماسة إلى طبقة جديدة من المؤرخين يعيدون عرض هذا التاريخ وتحليله بكل حيويته وتدفقه وامتداداته الأفقية والعمودية, وعناصره الظاهرة والباطنة, مما سيتيح – بلا شك– فهماً أعمق لهذا التاريخ, وإدراكاً أشد تركيزاً لعناصر تطوره, ورؤية أكثر وضوحاً لخطوط سيرها ومنعطفها الفاصلة, كما يجب أن لا يقع العاملون في نقل المنهج الجديد للتاريخ الإسلامي تحت وطأة المواصفات المعاصرة في كافة مناحي الحياة البشرية: السياسية والاقتصادية والأخلاقية, والروحية والاجتماعية, لأن هذا من شأنه أن يصيغ رؤيتهم للتاريخ الإسلامي بألوان تستمد تركيبها من واقع عصرنا الراهن, الأمر الذي يفسد موضوعية الرؤية, وبالتالي يصد المؤرخ عن الوصول إلى كنه الوقائع التاريخية التي قد لا تمت بصلة إلى موضوعات العصر الحاضر.

صحيح على المؤرخ أن يستفيد من كل ما يقدمه هذا العصر من علوم وأدوات موصلة, أو مساعدة, على كشف الحقيقة التاريخية, ما كان بميسور مؤرخنا القديم أن يحظى بعشر معشارها, لكن الاعتماد على هذه العلوم وأكثرها ميداني أو تجريبي,

---

[1] المرجع نفسه – ص90

للإعانة على كشف الواقعة التاريخية شيء والتأثير بفلسفة العلم الظنية التخمينية شيء آخر, وما أحدثته من نتائج سيئة في عالمي النفس والمجتمع, في ميداني الضمير والسلوك, شيء آخر قد يجعل المؤرخ أسير مواصفات زمنية نسبية متغيرة تفرض عليه نمطاً من التفكير في تعامله مع حشود الوقائع التاريخية, فلا يراها كما يوجب البحث الموضوعي أن يراها.[1]

فمن المستحسن إزاء ذلك كله أن نضع مؤشرات عمل نقدية, تقوم على نقد الرواية الأساسية لدى المؤرخ القديم، وتصنيف الروايات حسب قوتها وضعفها، ونقد مواقف فلاسفة التاريخ الذين تعاملوا مع تاريخنا ودرسوا جوانب منه وتحديد مدى قرب معطياتهم أو بعدها عن الحقيقة التاريخية, وأخيراً نقد معطيات الحركة الإستشراقية, بميادينها المختلفة , وتحديد المساحات التي يمكن الإفادة منها وتلك التي يجب تجنبها.

الخاتمة...

تجددت فكرة إعادة كتابة التاريخ الإسلامي لتجدد الدواعي والمبررات, ذلك أن إعادة كتابة التاريخ هو انعكاس طبيعي لإعادة قراءته, والتاريخ الإسلامي متجدد باستمرار وذلك بسبب ظهور معلومات جديدة وفقاً لظهور مذاهب وفلسفات متطورة وأدوات فكرية جديدة لتحليل وتفسير أحداث التاريخ الإسلامي وتعليله. وقد مر هذا التطور بمراحل تاريخية مختلفة, أظهر فيها المؤرخون أبرز أسباب العلل المباشرة والعامة للوصول للحقائق التاريخية في مجال الرأي والرؤية في المعارف المختلفة.

وهناك أسباب عديدة أعاقت إعادة كتابة التاريخ الإسلامي منها عدم وضوح الرؤية وضعف القدرة على التخطيط وغياب المنهج وعدم القدرة على العمل الجماعي الذي تتضافر فيه الجهود والطاقات للعمل في المشاريع الجيدة في ميادين البحث والفكر والعلم والعمل, بالإضافة لنقص الإمكانيات المادية والفنية وعدم تكامل الاختصاصات.

وثمة شروط أساسية لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي أهمها:

---

[1] عماد الدين خليل, مرجع سابق– ص 92–93

1. ضرورة ملاحقة التفسير الإسلامي للتاريخ والقيم التي يتمخض عنها تحليل التاريخ الإسلامي في توجهاته الشمولية.

2. حاجة التاريخ إلى مؤرخين أكفاء يعرضون الأحداث التاريخية بصورة كاملة قبل الحاجة إلى نقاد ومحللين للتاريخ الإسلامي.

3. ضرورة التوازن بين فحص الجوانب السياسية والعسكرية وبين تحليل الجوانب الحضارية.

4. إعمال النقد الخارجي للنصوص في التعامل مع الروايات التاريخية التي تقدمها المصادر القديمة.

5. الاعتماد على الوقائع التاريخية في بناء البحث التاريخي دون التأثر بمذاهب التفسير التاريخي المؤدلج كالتفسير المادي أو الديني أو غير ذلك مما يؤثر على حياد المؤرخ أو الباحث.

6. اتخاذ موقف علمي تجاه معطيات المستشرقين على مستوى المنهج والموضوع, وعدم التسليم المطلق بها لعدم حيادتهم في تقويم التاريخ الإسلامي, وتخريج باحثين ومؤرخين جدد معتزين بأمتهم وحضارتهم حريصين على بناء تاريخ ثقافي وحضاري للأمة الإسلامية، ويقع عليهم عبء إعادة عرض وصياغة هذا التاريخ الإسلامي وتحليله بكل حيويته وامتداده , مستفيدين من أدوات وعلوم هذا العصر في كشف الحقائق التاريخية.

المصادر والمراجع:

أولاً : المصادر:

1. ابن النديم– الفهرست– القاهرة, 1348هـ.
2. ابن خلدون– المقدمة تحقيق عبدالواحد وافي– القاهرة, ب ت .
3. البلاذري– فتوح البلدان, لندن 1891م.
4. المسعودي, مروج الذهب ومعادن الجوهر , ج 1, بيروت, ب ت.
5. ياقوت الحموي, معجم الأدباء, ج 18, طهران 1965م .

ثانياً: المراجع :

6. بروكلمان– تاريخ الأدب العربي– الترجمة العربية– القاهرة, 1991م, ج3.

7 جب هاملتون, دراســـات في حضـــارة الإســـلام, الترجمة العربية, بيروت, 1964م

8 روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين , الترجمة العربية, بغداد 1964م.

9 سالم أحمد محل: المنظور الحضاري في التدوين التاريخي, قطر , 1997م.

0 السيد عبدالعزيز سالم – مناهج البحث في التاريخ الإسلامي – الإسكندرية 1966م جزء 2 .

1 شاكر مصطفى, التاريخ والمؤرخون العرب, ج 1, بيروت, 1983م.

2 عبد العزيز الدوري– تفسير التاريخ, مقال التاريخ والحاضر , منشورات مكتبة النهضة, بغداد 1963م

3 عبدالعظيم الديب – المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإســـلامي – سلسلة كتاب الأمة قطر– عدد27.

4 عبدالعليم عبدالرحمن خضـر – المسـلمون وكتابة التاريخ – المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1981م.

5 عماد الدين خليل – حول إعادة كتابة التاريخ – ط1 –دار ابن كثير للطباعة والنشر–بيروت– 2005م .

6 محمد عبدالغني حسن _ علم التاريخ عند العرب – القاهرة 1962م .

7 محمد عبدالكريم الوافي – منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب– بنغازي – جامعة قاريونس ط1 1990م .

8 محمد فتحي عثمان – أضواء على التاريخ الإسلامي–الدار الكويتية للدراسة والنشر– الكويت1969م .

9 محمود إسماعيل: سوسولوجيا الفكر الإسلامي, الدار البيضاء,1981م– ج1.

0 نصر حامد أبوزيد, إشكاليات القراءة وآليات التأويل, المركز الثقافي العربي, ط 7.

ثالثاً : الدوريات :

1 أحمد بهاء الدين – إعادة كتابة التاريخ – (متى وأين ولماذا) مجلة العربي العدد 256 ، مارس ، 1980م الكويت.

2. أحمد محمود بدر – تفسير التاريخ من الفترة الكلاسيكية إلي الفترة المعاصرة– مجلة عالم الفكر – أبريل يونيو 2001م .
3. أنور محمود زناتي – تصورات حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي – مجلة البيان – دراسات تاريخية – العدد 347– أبريل– مايو 2001م.
4. عبدالله ناصر – كيف نعيد الأنظار إلي التاريخ الإسلامي – مجلة العربي – الكويت العدد299 السنه 26 ذي الحجة 1422هـ .
5. محب الدين الخطيب–المراجع الأولى في تاريخنا, مجلة الأزهر, المجلد 24, ج 5, صفر 1372هـ,
6. محمود إسماعيل– إشكالية تفسير التاريخ عند المسلمين الأوائل – مجلة عالم الفكر – عدد أبريل يونيو 2001م .

عرض كتاب *

د. عبدالله صالح

الخيار الاستراتيجي في: السودان عن طريق المصالحة

سطر البروفيسور محمد ولد لبات هذا الكتاب ونشره بثلاث لغات: العربية اللغة الأم والفرنسية التي تزاحم العربية ثقافة وحضارة بين أهله وفي بلاده موريتانيا؛ واللغة الإنجليزية المتداولة في أروقة مفوضية الاتحاد الأفريقي الذي بعثه وسيطا لتعبيد طريق المصالحة وبالتالي لتيسير طريق السلم الاجتماعي في السودان عقب اندلاع ونجاح الثورة الشبابية السلمية /الأسطورية في القضاء على حكم نظام الإنقاذ و الرئيس المخلوع عمر البشير الموجود حاليا في سجن كوبر الشهير. وقد استهدف القراء في هذه العوالم الثقافية المحاطة لهالة العولمة ليبعث رسالة خطية محددة المعالم وغير محدودة الدلالات من وعن ثورة وشعب وسودان وادي النيل : التاريخ والحدث والإنسان والحديث.

وقبل أن نخوض في متن الكتاب ومحاولة عرضه لا بد من طرح حزمة أسئلة حارقة لفتح شهية القراء من جهة وللتوسع بالقراءة والتأويل الضروريتين لمحاولة فهم الكتاب باعتباره نصا منفتحا على أكثر من حقل وفهم وتأويل. فنقول : كيف ولماذا نفذ أو انغرس الاتحاد الأفريقي في المشهد السياسي السوداني الموار في خضم/حمأة الثورة التي انفجرت كالبركان في شوارع العاصمة القومية الخرطوم في ديسمبر 2018م هل بدعوة من طرف داخلي محدد بعينه ؟ أو من طرف دولي محدد باسمه وحقه ؟ أم بتعاطف جمهوري إفريقي له أعماق وأبعاد إقليمية كانت أم دولية ؟ وهل كان الغرض والهدف هو إشفاق من إجهاض الثورة واستشراء العنف في السودان ودول الجوار؟ أم هو إجلال للثورة والثوار؟ وهل قرأت أو لمحت أو استشرفت مفوضية الاتحاد الأفريقي ملامح نجاح الثورة في اقتلاع نظام الإنقاذ في بلد يستحق المناصرة فهبت للمساهمة في تقنين وتقعيد الأوضاع بمشروع مصالحة تمهد لفترة انتقالية وديمقراطية مستقبلية ؟ هل تقبلت الأطراف السودانية مبدأ الوساطة وحضور وشخصية الوسيط والمبادي والقيم والنهج والمسارات والتوقعات التي طرحها صمن أوراق اعتماده ؟ وهل نجح الوسيط في الجمع – اعترافا وتفاوضا – بين قوى الحرية والتغيير الجامعة لقوى الثورة السودانية وبين "منظومة الأمن والدفاع" التي نحت مصطلحها وقنن حضورها القوي في متن الكتاب وفي قلب الوساطة في المشهد المحلي؟

استهل البروفيسور عمر كوناري رئيس جمهورية مالي الأسبق / رئيس مفوضية الاتحاد الأفريقي الأسبق تقديم الكتاب بالحديث عن السودان : البلد العريق الخارج لتوه – ممزق الأوصال – من سلسلة طويلة من المحن ، بحسبه ، كان آخرها في العام 2011م حين انفصل عنه الجنوب ليشكل دولة قائمة بذاتها. وقد تحدث واصفا بتكثيف دبلوماسي مقصود شخصية الكاتب/ البروفيسور محمد ولد لبات : الخبير الوسيط الميسر والمسهل والمبعوث الخاص لمفوضية الاتحاد الإفريقي ؛ الذي نجح بفضل حنكته وتجربته وروح المسؤولية لديه في التغلب على صعوبات التأقلم مع التباين والنشطي والمفارقات؛ وفي مقاربة دربه في

الوســـاطة حتى (...) تقمص ببراعة واقتدار عباءة الســـارد/القاص ليروي لنا الحكاية المثيرة لتلك الوســـاطة بأسلوب سلس بسيط لكنه شائق . ويستطرد كوناري تقديمه بتقييم حاذق للكتاب حين يصفه بأن النهج والكتاب " يشكل إسهاما قيما في ترسيخ المذهب الأفريقي للوساطة ومرجعا عمليا للاستفادة من تجربة تطبيقية على أرض الواقع ." يقصـــد بذلك الإضـــاءات النظرية والمفاهيمية والمنهجية المتراكبة التي يقدمها الكاتب والكتاب في هذا المسار التاريخي الثوري السوداني المندمج بكلياته في الزمن الأفريقي والزمان العالمي والعولمي.

ومن المهم أن نشـير في مسـتهل هذا العرض إلى أن البروفيسـور لباد الوسـيط الأفريقي قد جاء إلى الخرطوم مسلحا برصـيد معرفي ومعنوي وسـيع وغني : قراءات أكاديمية فاحصـة للتاريخ السـياسـي والثقافي والاجتماعي للسودان وإنصات واع لجدلية التركيب التي تمور وتحتدم في قلب المشهد الراهن وخبرة دبلوماسية بالنزاعات وكيفية الدخول فيها والخروج منها بترتيبات تمهد لزوما للتفاوض والسلام أو الوفاق؛ وإرادة شخصية حديدية معززة بحســـن النية وفوق هذا كله ومن بين أيديه ومن خلفه قوة دفع الاتحاد الأفريقي والمفوضـــية الراغبين جميعا في ترجيح كفة المنظمات الإقليمية في تدبير الشأن الإفريقي لتجسير مشروع الشراكة الجديدة من أجل أفريقيا. وهذا بحق هاجس استراتيجي يشكل قوة دفع دينامي للنجاح.

أوضح بروفيسور لباد الكاتب/الوسيط في الفصل الأول من الكتاب أسباب النزول التي جاءت بالاتحاد الإفريقي عموما والمفوضـية خصـوصـا للدخول في حمأة الشـأن السـوداني الموار عشـرة أيام فقط ومباشـرة بعد سـقوط نظام الاتقاد واعتقال الرئيس المخلوع البشـير وسـط غليان الشـوارع بملايين الشـباب والمتاريس التي أغلقت مداخل ومخارج العاصـمة والتوتر المشوب بالحذر من انفجار الأوضـاع إذا ما حدث أي اصـطدام بين العسـكر والشـباب الثوار المعتصـمين أمام القيادة العامة للجيش الخرطوم . وقد شـكل قرار الاتحاد الأفريقي بالضـغط على اللجنة الأمنية للقوات المسـلحة التي اسـتولت على السـلطة بضـرورة إعادتها للمدنيين حلال خمسـة عشـر يوما حسـب نص القرار رقم 854. وقد نجحت مفوضـية الوسطاء الإفرقية في تمديد المهلة إلى ثلاثة أشهر لإفساح المجال لمفوضية الأمن والسلم بالاتحاد الأفريقي لإيجاد حل عاجل وحازم . ولا ولم يتهيب الكاتب/الوسيط من جسامة وعظم المسؤولية نظرا – بحسبه – إلى عظمة السودان الإنسان والمجتمع والدولة.

اسـتعرض المؤلف في مسـح جغرافي– سـياسـي وبنظر ثاقب تفاصـيل المشـهد السـياسـي والعسـكري والأمني في البلاد . وقد كان حصـيفا جدا في اسـتعراضـه الذي انطوى على تشـخيص دقيق للحالة الراهنة للوقوف على العلل والأســـباب والكوابح والمعارضـــات والمواقف والتكتلات وغيرها من معالم الطريق الواجب التوقف عندها قبل الانطلاق في مســـاعيه لخلخلة الأوضـــاع . والخلخة نهج اســـتراتيجي إن لم تكن هي اسـتراتيجية في حد ذاتها . وقد كان يراقب بحذر بالغ التحركات التي تجري في خضـم الشـارع الثوري المتقد؛ كما كان يقر– بنظر فاحص – تغير تركيبة المجلس العسكري الانتقالي بعد استقالة رئيسه الفريق أبن عوف وتقديم الفريق البرهان وهو أمر يبعث العديد من الرسائل والكثير من الدلالات الصادرة عن المؤسسة العسكرية

والنظام الأمني والدفاعي برمته في حمأة الوضـــع المواز؛ وخاصـــة بعد الظهور المفاجئ والقوي لقوات الدعم السريع في المشهد العام . وأيضا بعدما تأكد للجميع دورها الحاسم في قلب كفة الميزان لصالح قوى الحرية و التغيير وسـقوط نظام البشـير. ولنسـتخلص من كل هذا نجاح الوسـيط في تحديد المعالم الجوهرية للمكونات الأسـاسـية في التركيبة الراهنة : قوى إعلان الحرية والتغيير بتشـكلاتها السـياسـية والنقابية والمجتمع– مدنية ذات الطبيعة المتشـــعبة من جهة؛ و المكون العســـكري والأمني بتركيبته المتينة من جهة أخرى . ولم يغفل الكاتب / الوسـيط أن يذكر الحضـور القوي والمتوتر للحركات المسـلحة التي أقضـت مضـاجع نظام الإنقاذ خلال عقدين من الزمان وأدخلت البلاد في حروب حدودية وعرقية وقبلية ودفع الكل ثمن الحصـــار الدولي بسبب من انتهاكات حقوق الإنسان أو العنف والتقتيل أو غيرها من الأسباب التي جعلت السودان يحتل موقعا غريبا عن تاريخه حين أصبح "أكثر البلدان الأفريقية انتشارا للأسلحة الفردية من شتى الأنواع".

نجح الوسـيط – بادي الرأي – في تحديد المعالم المنهجية والضـرورية جدا لإقرار الاسـتقطاب الثنائي اللازم لتحديد معالم ومسارات الوساطة في المشهد السوداني المتشظي. وقد حزم أمره وحسم اختياره في حصر التفاوض بين قوى إعلان الحرية والتغيير ومنظومة الدفاع والأمن. وشـبه الأمر تشـبيها شـاعريا بليغا بعودة المياه إلى مجاريها الطبيعية في التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق " لينسابا بهدوء في اتجاه واحد على طريق المصـالحة." وبرر موقفه واختياره حين أوضـح أن " هاتين القوتين قد تعاضـدتا في إسـقاط النظام المخلوع . ومن المؤكد أن لهما الفضـل في العمل – إلى حد بعيد – على بعث قوى عسـكرية ومدنية وفكرية وتجميعها لتنصهر في بوتقة الثنائي المقدس : المجلس – الإعلان ". وقد كان الكاتب / الوسيط واعيا بهذا الاختيار من موقعه كممثل للاتحاد الإفريقي الذي كانت صورته قبيحة بل مشوهة في المشهد السوداني بسبب من تطاير أوراق ومعلومات عن تعامله وعدم حياده وعلاقاته المشبوهة مع نظام البشير والإنقاذ. و فرض عليه هذا كله الانشـــغال بأكثر من طاقته وبأكثر من أســـلوب وقناة لإعادة الثقة للمتفاوضـــين والرأي العام من جهة ؛ ولمحاصـرة الأجندة الدبلوماسـية المتناثرة في السـودان بالأغراض والأهواء من جهة أخرى . فما هو السـبيل الأمثل لإنضـاج الوسـاطة في هذا البحر الخضـم من الشكوك والصـعوبات والمتاريس والتصـريحات والبيانات والإشاعات المغرضة؟

في فصل تالي أوضح الكتب منهجية "إنضاج الوساطة" التي استثمر فيها ثقته بنفسه وخلفيته الأكاديمية وخبرته الدبلوماسية التاريخية والمعرفية والروحية لتوضيح وتفسير وتأويل حقيقة مذاهب الوساطة وكنه طرائقها وسبل أجرأتها التي تعترف كلها بأدلة العقل والمنطق وبضـرورة الإنضـاج المتقن مهما كلف الأمر بحسبه من جهد و وقت. فكل عملية وسـاطة تسـتلزم طابعا حيويا لإنجاح العملية متمثلا في أحد أبعادها الأسـاسـية ألا وهو توعية الأطراف وبناء الثقة وتعزيز الإرادة و وضـع معالم على الصـعيد النظري والفكري والمنهجي . وقد

استفاض في توضيح المعالم والمؤشرات والعبر والدلالات الحكمية التاريخية التي ستفاد من مراجعته الدقيقة لمسارات ودروس و وساطات الآباء الروحيين ورموز في الحكم الإفريقي وشؤون السلطة والفكر؛ مثل نايريري ومانديلا وماسيري. وكشف بروح رياضية وتواضع بديع عن الطريق الطويل والخطير للمفاوضات السرية منها والعلنية والتي أدت إلى تطويل وتمطيط عمر الوساطة في بعض المواقف والمنعطفات حتى إنه : ضحى بتقليص ساعات نومه و... وانتهى إلى زيارة المستشفى مرتين وحذره الطبيب ووجه مساعديه بمصادرة هاتفه حفاظا على صحته. ويبدو أن حصر التفاوض الذي نجح في التحول به ومعه إلى شكل منهجي للحوار المثمر بين طرفين أساسيين فاعلين؛ قد يسر له السبيل الأمثل لإنضاج الوساطة من جهة؛ وللسير قدما نحو ترتيب وتقعيد الأسس والضوابط والحصيلة والنتائج المتوقع التوصل إليها. وقد سجل بارتياح نفسي ودبلوماسي قبول الطرفين: المجلس العسكري وقوى الحرية والتغيير لصيغة وتركيبة المفاوضات؛ وخاصة بعدما تأكد لخما بارتياح أن هذه الصيغة سوف تقصي حضور أي طرف أو مجرد شبهة طرف من ممثلي النظام المخلوع . وقد غمض هذا التشدد في الاختيار لهذا النهج التفاوضي الحصري حق العديد من الشخصيات والوسطاء ومنظمات المجتمع لمدني وبعض الأحزاب الصغيرة ، والأخطر: الحركات المسلحة التي انضوت تحت لواء الجبهة الثورية والتي تمتلك سجلا تاريخيا في مناهضة النظام المخلوع .

لخص ولد لبات في مقطع صغير الهدف الاستراتيجي السياسي والإعلامي لكتابه، حين قرر بحزم قائلا " ليس الهدف التاريخي سرد قصة شخصية قد لا تهم القارئ كثيراً، بل الهدف الذي نسعى إليه هو التأكيد على النتيجة الباهرة التي كان لها صدى في المنطقة وفي القارة الأفريقية والعالم، والمتمثلة في اتفاق السابع عشر آب/أغسطس 2019م في الخرطوم " ويتجسد الهدف النجاح في التوصل – بتفويض من مجلس السلم والأمن الأفريقي في سبيل إرساء المركزية الإفريقية – إلى صيغة اتفاق بين السياسيين يكفل إقامة حكم انتقالي يتولى فيه المدنيون الريادة ." ويستند كل هذا الأمر على "المبدأ المقدس الذي يقتضي بأن تسوى مشاكل الإفريقية بأنفسهم ". ويستطرد في موقع آخر " علي أن أعترف دون أي مجاملة ولا محاباة لإخواني السودانيين أني قد تعلمت منهم الكثير في معرض مناصرتي لفكرة قبول الآخر. لم أتعلم منهم فحسب، بل إني كذلك عرفت عنهم الكثير حتى إنهم – وهذا ما يجب علي الإقرار به – عرفوني بنفسي، بمحدودية قدراتي ومواطن ضعفي، خلال الاجتماعات الماراثونية التي عقدتها معهم بدرجات متفاوتة ." وعزز الوسيط اجتهاده بتسجيل الحضور والتشجيع الذي تلقاه من ثلاثة تكتلات داخل السودان : مجموعة الوساطة الأفريقية ومجموعة السفراء الأفارقة المعتمدين بالخرطوم والسفراء العرب غير الأعضاء في المجموعة الأفريقي وتنضاف إلى هذا كله الوساطة الوطنية متمثلة في شخصيات رمزية ومجموعات ومنظمات ساهمت في تفعيل مجهوداته .

استعرض الكاتب في فصل جديد مسارات الوساطة بعد إنضاجها، وقدم الكثير والمثير من المعلومات الحاوية للدقائق والحقائق والعقبات والمزالق والمثبطات وغيرها من الكوابح؛ التي تقف مع رفيقه المبعوث الأثيوبي الخاص السفير محمود درير والسفير محمد بن يعيش رئيس بعثة الاتحاد الأفريقي بالخرطوم، في تجاوزها بحنكة ومهارة وصبر أيوبي منيع وفريد في بابه . وكاد الإعداد للإعلان الاتفاق المرحلي يفشل بعدما قامت قوة عسكرية بفض اعتصام الثوار أمام القيادة للجيش لمنتهى الوحشية في الثالث من يونيو 2019م؛ حيث استشهد عدد كبير من القتلى المدنيين وتفرق الجرحى هاربين أو مفقودين حتى تاريخه. وطفت أو غرقت عدد من الجثث على سطح وضفاف وأعماق النيل في مشهد وظروف روعت الضمير السوداني والإنساني العالمي. ولم تظهر حتى اللحظة تفاصيل تقرير لجنة التحقيق التي شكلتها الدولة للكشف عن حقيقة ما جرى وتحديد الجهات المسؤولة عن ارتكاب هذه الجريمة التي استوقفت مسار التفاوض والحوار. كل هذا وسيف الوقت مسلط على رقبة الوسيط الذي كان ينافخ لتدارك الأمر قبل نفاذ المهلة الزمنية التي حددها الاتحاد الأفريقي من جهة ؛ وقبل ارتداد وانزلاق البلاد برمتها في مستنقع العنف والتمزق والحروب التي تنذر بشر مستطير توسع الكاتب السفير عنده مرارا في التحذير من العراقيل والنتائج في ثنايا السرد بالكتاب.

تم الإعلان في شهر أغسطس عن الاتفاق السياسي بين قوى الحرية والتغيير والمجلس العسكري في مؤتمر صحفي بعد جهد جهيد كتتويج للحوارات والمفاوضات الماراثونية . وترتب عن هذه الخطوة الشروع في خطوة قانونية أهم وأعتى وهي الإعلان أيضا عن صياغة الوثيقة الدستورية لنظام الحكم وتنسيق العمل بين السلطات الثلاث في الدولة : السيادية و التنفيذية والقضائية خلال الفترة الانتقالية؛ على أساس نظام برلماني سبق للبلاد أن جربته في الماضي القريب.

إن اهم ما يميز هذا الكتاب هو التحليلات الحاوية لبعض الآراء والانطباعات العاطفية والمواقف الذاتية الأشبه – بلغة كرة القدم – بالتمريرات (البينية) الذكية الحاوية لرسائل ذات مواصفات سياسية وتوصيات وتذكارات وحكم وقسط من المواعظ التي سطرها الكاتب/ السفير/الوسيط بعقل نابه وحدس ذكي وحس أمني وبعد نظر دبلوماسي وذوق أكاديمي رفيع؛ يسمح للقارئ الفطن بالتوقف مرارا وتكرارا عند المحطات والمواقف والرهانات وكذا التحديات، التي تجول عندها وبها وفيها قطار الحوار والتفاوض بالوسيط الأفريقي: من أجل بلوغ الهدف الأسمى المناط بشخصه الرسمي .

كان ميلاد الاتفاق السياسي هو الإعلان لحقيقي لنجاح خيارات ومواقف ومبادئ وأهداف الوساطة الأفريقية وبالتالي لمنهجية " الشراكة الديناميكية " بين مكونات المجتمع السوداني بتشكلاته المتنوعة والمتعددة؛ وبين تدخلات واختيارات ومواقف وتوجهات وحسابات الشركاء الإقليميين والمجتمع الدولي بصفة عامة.

"إن هذا الدرس الذي تعطيه التجربة السودانية للعالم يستحق أن ننحني إجلالا له وأن نتأمله بتأن عندما نحاول حل أزمات مستقبلية ". ويستطرد مستخلصا ومختتما " في هذا الصدد تبدو الدروس المستخلصة من

الوســاطة الأفريقية – بايجابياتها وســلبياتها – جديرة بالاعتبار لأكثر من ســبب. وتملي علينا النزاهة الفكرية واجب التطرق إليها ومساءلتها والإصغاء إلى همساتها المعبرة ".

انتهى

عرض/د. عبدالله صالح سفيان

باحث

***محمد الحسن ولد لبات – السودان على طريق المصالحة – دار عزة للنشر – الخرطوم – الطبعة الأولى 2020م.(423 صفحة**